الشعر العربي القديم وقضايا النقد المغربي

قراءة في كتاب العمدة

الدكتورة: فاطمة بن يمينة

مخبر الخطاب الحجاجي ، أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

University of Tiaret –ALGERIA

الملخص: حظي الشعر العربي ببالغ الاهتمام، فكان منبع أبحاث علماء التراث، فجاءت جلّ دراساتهم متعلقة به، إذ؛ تناوله النقاد القدامى منذ العصر الجاهلي إلى أن أينع واستوى النقد الأدبي في المشرق العربي في العصر العباسي، وقد استفاد نقاد المغرب العربي أيّما استفادة ؛من تلك الأبحاث، ومما ألّف من كتب حول أهم المسائل والقضايا النقدية في القرون الأولى، غير أنهم لم يكتفوا بهذا؛ بل عزموا على التجاوز والإضافة، لاسيما في القرن الخامس الذي يعد أزهى العصور الأدبية بالنسبة للمغرب العربي. حيث؛ يعد ابن رشيق القيرواني (390هـ\456هـ) من أهم النقاد في هذا القرن، فكان له فضل في التأليف والتنظير للشعر وما قيل حوله وفيه ولذلك وقع اختيارنا على آراء ابن رشيق في الشعر وما يتعلق به من قضايا نقدية. من خلال قراءتنا لكتاب العمدة.

الكلمات المفتاحية: النقد، الشعر، القضية، ابن رشيق، العمدة.

Ancient Arab poetry and Moroccan criticism issues
Read in the eleaumda book

Abstract: Arabic poetry received great interest; it was the source of heritage scholars' research, and most of their studies were related to it. As old critics addressed it from the pre-Islamic era until the literary criticism was

تاريخ إيداع البحث: 24 نوفمبر 2019.

تاريخ قبول البحث: 26 ديسمبر 2019.

reckoned and levelled in the Arab Orient in the Abbasid era, and the Arab Maghreb critics have benefited, as much as from this research. Among what written many books on the most important matters and critical issues in the centuries, but they were not satisfied with this. Rather they were overrun and add-on, especially in the fifth century, which is regarded as the flourishing literary era for the Arab Maghreb. Where Ibn Rashik Al-Qayrawani (390 AC -456 AC) is considered as one of the most important critics of this century. He was credited to authorship and theorizing of poetry and what was said about and in it, and therefore we chose Ibn Rashik's opinions on poetry and related critical issues through our reading of the Mayor's book .

Key words: criticism, poetry, issue, Ibn Rashik, Mayor

العمدة هو كل شيء يعتمد عليه والعرب؛ كانت تعتمد على الشعر في كل حياتها، والشاعر كان هو العمدة في كل قبيلة من قبائل العرب، إذ يعد الشعر «عمود الرواية، عليه مدارها وبه اعتبارها، وقد كانت منزلته من العرب ما هي، إذ كان يتعلق بأنسابهم، وأحسابهم، وتاريخهم، وما يجري مع ذلك حتى كأنّه الحياة المعنوية لأولئك القوم المعنويين، فلم يكن عجبا أن يدور فيهم مع الشّمس والريح، وأن تسخر له ألسنتهم فينصرفوا إلى قوله وروايته، حتى بلغ منهم مبلغه»[1]. وابن رشيق أدرك حقيقة الشعر ومكانته عند العرب فعنون كتابه بـ: "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" أو "العمدة في صناعة الشعر ونقده" وذلك لأن الكاتب وجد الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، إذ أن شهادته مقبولة، وإرادته ممتثلة؛ كما أنّه حكمة لقول رسول الله صلى الله: إنّ من الشعر لحكمة[2] ويصفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول: «نِعم ما تَعَلَمَتْهُ العربُ الأبيات من الشعر يُقَدِمُها الرجل أمام حاجته»[3]. وبتتبعنا لمواضيع الكتاب نجد أن قضايا الشعر أخذت حصة الأسد من اهتمام المُؤَلِف ومن أهم هذه القضايا:

1- قضية المنثور والمنظوم:

هي قضية اختلف حولها النقاد القدماء، حيث ذهب البعض إلى تفضيل النثر على الشعر وذهب فريق آخر إلى تفضيل الشعر عن النثر، مما جعل ابن رشيق يقف عندها ويدلي بدلوه فيها فيقول: «ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر، الطاعنين على الشعر، يحتجُّ بأن القرآن كلام الله منثور، وأنّ النبيّ صلى الله عليه

وسلم غير شاعر؛ لقول الله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ**﴾[4] ويرى أنّه قد أبلغ في الحجة، وبلغ في الحاجة، والذي عليه في ذلك أكثر مما له؛... حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق وإعجازا للمتعاطين، وجعله منثورا ليكون برهانا لفضله على الشعر»[5].

ويرد ابن رشيق على هؤلاء الذين يرون أن القرآن جاء لإعجاز الشعراء فيقول: «فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسل... ألا ترى كيف نسبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الشعر لما غلبوا وتبيّن عجزهم؟ فقالوا: هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، وأنّه يقع منه مالا يُلْحَقُ، والمنثور ليس كذلك»[6] ويضيف احتجاجا آخر يحتج به أهل النثر على أهل الشعر وهو أن: الشعراء لا يكونون في خدمة الكتاب مهما كانت لهم من مكانة، لثقة الشاعر بنفسه، وثقته من أن الكتاب هم من يحتاجون للاستشهاد بشعرهم، كما أن صناعة الشاعر بضاعة مطلوبة لدى كل النّاس، على اختلاف مكانتهم الاجتماعية والثقافية، وذلك لأن الشعر غلاب والدليل أنه؛ كان لأبي تمام والبحتري قهارمة وكتاب، وكان من عميان الشعراء أزمة كبشار وأبي على البصير وكان ابن الرومي من أكبر كتاب الدواوين فغلب عليه الشعر[7] ومن هنا يتبين أن ابن رشيق يميل إلى تغليب الشعر عن النثر، مرجعا هذا إلى قدرة الشاعر على التأثير على أي مستمع كان، حتى الملوك والأمراء يأخذ منهم ما يطلبه بما أوتي من صناعة انفرد بها دون سواه.

وقد بالغ ابن رشيق في تقديم الحجج والبراهين الدالة على تفضيله للشعر عن النثر وما يؤيد رأينا هذا مجيئه بباب آخر يردّ فيه على من يكره الشعر، مدعما رأيه بذكر أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء فذكر أشعارا نسبها إلى أبي بكر الصديق، ولعثمان بن عفان، ولعلى بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب الذي نستشهد ببعض أبياته التي قالها ؛ مفاخرا بها كفار قريش، خاصة أبو جهل في قصيدة مما جاء فيها[8]:

عَشِيةً صاروا جَاشِدِينَ وكُلُّنا * مَراجِلُهُ من غَيْظِ أصْحابِه تَغْلي**

فلمّا تَرَاءَينَا أنَاخُـــوا فعَقَّلوا *** مطايا وعقلنا مدى غَرضِ النَّبلِ

وقلنا لهم: حَبْل الإلهِ نَصِيرُنَا *** وما لَكُم إلا الضَلالةَ من حـبلَ

فثَارَ أبُو جَهل هنَـالِك بَاغِيًا *** فخَابَ، ورَدَّ اللهُ كيدَ أبي جـهلِ

وما نحـن إلا في ثلاثين راكبا *** وهـم مائتان بعد واحدةٍ فضلِ

والهدف من كل هذه الأدلة ترجيح كفة الشعر عن النثر.

2- قضية القديم والحديث:

اشتدّ الصراع بين مذهب المحافظين، ومذهب المجددين، فجعل النقاد من هذا الصراع، قضية نقدية تناولوها بالأخذ والرّد، وقد تمثلت في تلك الخصومات والموازنات بين الشعراء، وعلى رغم من البعد التاريخي بين ظهور هذه القضية وبين عصر ابن رشيق، إلا أنّه خاض فيها وأبدى رأيه فيها إذ يقول: « وأنا أرجو أن أكون باختيار هذا الفصل وإثباته ههنا داخلا في جملة المميزين، إن شاء الله؛ فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من النّاس دون طائفة لا يخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه كالذي لفظه سائر في كل أرض، معروف بكل مكان، وليس التوليد والرّقة أن يكون الكلام رقيقا سفسافا، ولا باردا غثا، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حوشيا خشنا، ولا أعرابيا جافيا، ولكن حال بين حالين »[9]. وقد شمل هذا القول الرّد على من فضل القدامى على المحدثين أمثال: أبي عمرو بن العلاء الذي بين لنا موقفه المعادي والمعارض للشعراء المحدثين في العصر العباسي. وذلك في قوله عن لسان الأصمعي، الذي قال: «جلست إليه [إلى أبي عمرو بن العلاء] ثماني حِجَجٍ فما سمعته يحتج ببيت إسلامي، وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فهو من عندهم»[10]. غير أن ابن رشيق حاول تقديم أعذار ومبررات لموقف أبي عمرو بن العلاء وأتباعه اللغويين من المحدثين؛ رادا تعصبهم للقديم إلى طبيعة علمهم والاستشهاد في تنظيرهم للنحو.

يذكر- ابن رشيق- بعض الضوابط والخصائص التي تجعل من الشعر في أي عصر، شعرا جيدا في قوله: « ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة

الكلام وطلاوته، مع البعد من السخف والركاكة، على أنّهم لو أغربوا لكان ذلك محمولا عنهم؛ إذ هو طبع من طباعهم، فالمولد المحدَثُ – على هذا- إذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الإتباع، ومعرفة الصواب، مع أنه أرقُّ حَوْكا، وأحسن ديباجة»[11] وتلك الضوابط ليست جديدة على سابقيه، وإن صاغها بأسلوبه الخاص، ومع ذلك يبقى له فضل الربط بيننا وبين أراء القدامى.

3- قضية الشعراء والشعر:

لقد وقف ابن رشيق على قضية الشعراء والشعر، من خلال قوله: «طبقات الشعراء أربع: جاهلي قديم، ومخضرم، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وإسلامي ومُحْدَث، ثمّ صار المحدثون طبقات: أولى وثانية على التدريج وهكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا، فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر فيتصفح مقدار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي، وبين الإسلامي والمخضرم، وأنّ المحدَث الأول – فضلا عمن دونه- دونهم في المنزلة، على أنه أغْمَضُ مسلكا وأرقُّ حاشية،... ففي الجاهلية والإسلام من ذهب بكل حلاوة ورشاقة، وسبق إلى كل طلاوة ولباقة »[12]. ومن الواضح أنّ ابن رشيق حذا حذو ابن سلام الجمحي في تصنيفه للشعراء إذ اعتبر أن الطبقة الأولى للشاعر الجاهلي، ثم المخضرم، ثم الإسلامي، ثم المُحْدَث، وينزل بالشعراء حسب عصورهم غير أنّه لم يحدد الشعراء الذين هم أهل لهذه الطبقة، كما استشرف بتدني الشعر مع مرور الوقت.

كما أورد تصنيف القدماء للشاعر إذ قالوا: «الشعراء أربعة: شاعر خنذيذ، وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره، وسئل رؤبة عن الفحولة قال: هم الرواة؛ وشاعر مُفْلِق وهو الذي لا رواية له إلا أنه مُجُوِّد كالخنذيذ في شعره؛ وشاعر فقط، وهو فوق الرديء بدرجة؛ وشُعْرُورٌ، وهو لا شيء»[13]. وفي ذكره لهذا التصنيف تحفيز لشعراء عصره وأبناء منطقته، والدفع بهم إلى الإجادة والتميّز في قول الشعر.

4- سبب تسمية الشاعر شاعرا:

جاء على لسان ابن رشيق أنّ سبب تسمية الشاعر شاعرا أنّه: « يَشْعُرُ بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليدُ معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة قيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ، أو صَرْف معنى إلى وجه عن وجه آخر؛ كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير»[14] وهنا دعوة صريحة إلى التجاوز والتجديد والإبداع، وابتعاد اللاحق عن تقليد السابق. كما نلاحظ تقاطع رأي ابن رشيق مع النقاد المعاصرين أمثال جون كوهين الذي يرى بأن الشاعر لا يعد: «شاعرا لأنه فكر وأحس ولكن لأنه عبَّر وهو ليس مبدع أفكار، بل مبدع كلمات، كل عبقرية تكمن في اختراع الكلمة»[15] وهذه إضافة تحسب لابن رشيق الذي اتهم بأنّه مجرد جماعة لأقوال الأوائل ولا جديد لديه.

5- الشعر وقضية النقد الأخلاقي:

أورد ابن رشيق لقرائه أصناف الشعر على لسان شيخه عبد الكريم النهشلي «الشعر [أربعة] أصناف: فشعر هو خير كله، وذلك ما كان في باب الزهد، والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثل به بالخير، وما أشبه ذلك؛ وشعر هو ظرف كله، وذلك القول في الأوصاف، والنعوت والتشبيه، وما يفتنُّ به من المعاني والآداب؛ وشعر هو شر كُلُّه، وذلك الهجاء، وما تَسرَّعَ به الشاعر إلى أعراض الناس؛ وشعر يتكسب به، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما يَنفق فيها، ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي عليه من جهة فهمه»[16] يبدو جليا أن الناقد يدعو إلى النقد الأخلاقي الذي عرف في صدر الإسلام، وذلك لتأييده لرأي شيخه عبد الكريم النهشلي الذي قدم شعر الزهد على بقية الأغراض الشعرية الأخرى، وحكمه على شعر الهجاء بأنّه شر ولا خير فيه.

6- عناصر الشعر وبواعث استدعائه:

حدد ابن رشيق عناصر الشعر بخمسة عناصر، أربعة منها جاء بها قدامة بن جعفر في كتابه " **نقد الشعر**" مضيفا هو عنصر النية، والقصد في قوله: « الشعر

يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر»[17] ويعلل سبب اشتراطه لعنصر النية بقوله: «لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية»[18] وبوقوفنا على هذا التعليل يمكننا القول أن ابن رشيق بإضافته للقصد والنية، كان له رؤيا استشرافية لمصير الشعر في المستقبل، خاصة بعد ظهور شعر التفعيلة، ومن بعده شعر القصيدة النثرية التي تجاوز أصحابها كل ضوابط الشعر المعروفة؛ من بحور وتفعيلات وكسر لوحدة البيت وتحويله إلى أسطر، أو فقرات منثورة، أو بالأحرى ضرب القصيدة النموذج في العمق. ما علاقة هذا التجاوز بالقصد والنية؟

هذا؛ وقد جعل من أركان الشعر«أربعة أركان، وهي: المدح، والهجاء، والنسيب، والرثاء»[19]، كما حصر القواعد في أربعة قواعد هي: «الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب: فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع »[20] فهذه القواعد مرتبطة ارتباطا وثيقا، بالحالة النفسية للشاعر، التي تسهم في استدعاء الشعر، وهو ما يدل على أن ابن رشيق أيقن حقيقة الوظيفة النفسية للشعر وما لها من دور فعال في توليد غرض معين من الشعر فعلى حسب الحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر يكون الإنتاج الشعري.

7- اللفظ والمعنى:

لقد أثارت قضية اللفظ والمعنى، اهتمام نقاد العرب قديما فكان أول من أثارها الجاحظ في كتابه البيان والتّبيين، وبقي البحث فيها مفتوحا على مصراعيه أمام الأجيال التي لحقته من النقاد، ويعتبر ابن رشيق من هؤلاء النقاد الذين استحوذت على تفكيرهم، فاطلع على كل ما قيل على لسان أسلافه، ليخرج برأي يقرّ فيه باستحالة الفصل بين اللفظ والمعنى، فيقول: «اللفظ جسم، وروحُه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختلَّ بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهُجْنَة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العَرَج والشَلَل والعَوَر وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح،

وكذلك إن ضعف المعنى واختلَّ بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب، قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصبح له معنى؛ لأنا لا نجد روحا في غير جسم البتة»[21]. يتبيّن من هذا القول أن ابن رشيق أدرك أن الخلق الأدبي كتلة واحدة متماسكة أو كل لا يتجزأ، ولذا لا يمكن الفصل بين معناه ومبناه، فالعمل الأدبي مثله مثل الإنسان جمسه هو المبني وروحه هي المعنى. فلا وجود لأحدهما بدون الآخر، كما لا يكون لأحدهما فضل السبق على الآخر«و إنما هما عنصران متلاحمان يولدان في وقت واحد»[22].

ثم يضرب لنا أمثلة عن الشعراء الذين يفضلون اللفظ على المعنى، ليقابلهم بمن يفضلون المعنى على اللفظ، فيقول: « للناس فيما بعد آراء ومذاهب: منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غَايتَهُ ووكده، وهم فرق: قومٌ يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته، على مذهب العرب من غير تصنع، كقول بشار:

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِّيَّةٍ * هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أو قَطَرَتْ دَمَا**

إذا مَا أَعرْنا سَيّدا من قَبيلـةٍ * ذَرَى مِنْبَر صلىَّ علينا وسلّمــا**

وهذا النوع أدل على القوة، وأشبه بما وقع من موضع الافتخار، وكذلك ما مدح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحت »[23]. نلمس في هذا القول ميول ابن رشيق إلى التشجيع على الاهتمام باللفظ أكثر من المعنى وما يثبت ذلك حديثه عن المنتصرين للمعنى فيقول عنهم: « ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته، ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته: كابن الرومي، وأبي الطيب، ومن شاكلهما: هؤلاء المطبوعون»[24]، ثم يعيد ابن رشيق الحديث عن أفضلية اللفظ عن المعنى في قوله: «وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى، سمعت بعض الحذاق: قال العلماء: " اللفظ أغلى من المعنى ثمنا، وأعظم قيمة، وأعز

مطلبا؛ فإن المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ»[25].

هكذا، ومن خلال أراء ابن رشيق حول اللفظ والمعنى، نجده لا يستقر على رأي واحد فبعد أن ساوى بينها في الرأي الأول، يعود ويطرح نفس الفكرة التي قال بها الجاحظ: «المعاني مطروحة في الطريق... وأنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ»[26] وهي نفس الفكرة التي تبناها قبله أبو هلال العسكري، غير أن ابن رشيق قام بتوضيح هذه المقولة بقوله: «ألا ترى لو أن رجلا أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الإقدام بالأسد... فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حُلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قَدْر»[27].

والملاحظ بعد الموازنة التي قام بها ابن رشيق بين المذهبين المختلفين حول قضية اللفظ والمعنى، أنّه وصل إلى نتيجة مفادها أن اللفظ والمعنى مثلهما مثل الورقة النقدية ذات الوجهين اللذين يستحيل التفرقة بينهما، وهو رأي اختار به الوسطية والاعتدال دون الميل إلى أي طرف من الأطراف المتجادلة حول ثنائية اللفظ والمعنى وإن كنا نلمس في أحايين كثيرة اندفاعه نحو تفضيل اللفظ عن المعنى.

8- الطبع والصنعة:

نالت قضية الطبع والصنعة اهتمام النقاد العرب، وقد أعطاها ابن رشيق نصيبها من البحث، فأبدى رأيا يختلف نوعا ما عن سابقيه، وذلك لأنه لم يجعل الطبع حصرا على المتقدمين، كما لم ينف عنهم الصنعة، وأيضا هو لم يلحق الصنعة بالمولدين ويحرمهم من الطبع في قوله: « ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا، وعليه المَدَار. والمصنوع وإن عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تَعَمُّل، لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره»[28].

هذا، ويعتقد ابن رشيق أن الصنعة زادت مع المولدين في إفراطهم في استعمال البديع، وهي ليست عيبا في نظره إلا إذا: «كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وإيثار الكلفة، وليس ينجيه البتة أن يتأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد»[29]. ويقدم للقارئ نماذج عن شعراء اعتمدوا على الصنعة: فمنهم من أجادها ومنهم من أساء استعمالها، كما هو الأمر في: « أشعار حبيب والبحتري وغيرهما. وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها: فأما حبيب فيذهب إلى **حزونة** اللفظ، وما يملأ الأسماع منه، مع التصنيع المحكم طوعا أو كرها، يأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة، ويأخذها بقوة. وأما البحتري فكان أملح صنعة، وأحسن مذهبا في الكلام، يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة»[30].

إنّ ما يتبين من هذا القول أن ابن رشيق يميل إلى شعر البحتري، -كما مال قبله إليه الآمدي في كتابه الموازنة- بوصفه يصطنع الشعر ويجيد في صناعته، عكس أبي تمام الذي اختار طريق التكلف. و هنا نجده يفرق بين ثلاث مصطلحات: **الطبع**: وهو ما جُبل عليه الشاعر. و**الصنعة**: وهي أن يقوم الشاعر بتنقيح ما يراه غير مناسب في شعره كما كان يفعل عبيد الشعر في العصر الجاهلي؛ أمثال زهير بن أبي سلمى في حولياته. أما **التكلف**: أن يكون للشاعر نية وقصد في توظيف بعض الألفاظ والمعاني التي يراها ملائمة لأداء الوظيفة المطلوبة منها في إيصال الفكرة، وتجميل المبنى.

وابن رشيق ليس ضد الصنعة وإنما هو ضد التكلف فيها والدليل أنّه يصرح بإعجابه بابن المعتز بقوله: «وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعا من عبد الله بن المعتز؛ وهو عندي ألطف أصحابه شعرا، وأكثرهم بديعا وافتتانا، وأقربهم قوافي، وأوزانا»[31] غير أنه لا ينصح المبتدئ في الشعر بأن يعتمد عليه في البداية، وإنما عليه بالاستفادة من أبي تمام، ومسلم بن الوليد(صريع الغواني)، ويتجلى هذا في قوله: «غير أنا لا نجد المبتدئ في طلب الصنعة ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا بمطالبة شعر

حبيب وشعر مسلم بن الوليد؛ لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها، ولأنهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة، وأكثرا منها في أشعارهم تكثيرا سهلها عند الناس»[32]

إذا؛ ابن رشيق لا يعيب على أحد إن تصنع في شعره، ولكنه يطلب الاعتدال في ذلك، حتى لا ينجر إلى التكلف الذي يؤدي بصاحبه إلى المشقة ومنه إلى السقوط في الشعر المنبوذ من طرق أصحاب الذائقة الشعرية الرفيعة.

9-حسن البداية والنهاية:

نالت القصيدة العربية حظا وافرا في النقد العربي القديم، ومما تطرق إليه النقاد حسن الابتداءات، وحسن التخلص، وحسن الخروج، وقد خص ابن رشيق بابا من أبواب العمدة للحديث عن ذلك في: "باب المبدأ، والخروج، والنهاية" قائلا: « قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر: لقد طار اسمك واشتهر، فقال: أقللت الحز وطبقت المَفْصِلَ، وأصبت مقاتل الكلام، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ولطف الخروج إلى المدح والهجاء، وقد صدق»[33] فبتلفظ ابن رشيق "صدق" -ويقصد صدق الجرجاني في رأيه-، يعلن تأييده له ثم يعلل لنا سبب هذا التأييد: «لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى المديح، سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق بالنفس؛ لقرب العهد بها؛ فإن حسنت حسن وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتمها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»[34].

يبدو واضحا من هذا القول أن ابن رشيق أدرك أهمية دور المتلقي في إنجاح العملية الإبداعية، التي لا قيمة لها إن لم تجد لها قارئا أو مستمعا يعمل على إحيائها واستمراريتها في الوجود الإبداعي، وهو ما ذهب إليه نقاد العصر في نظرية التلقي.

وإذا وقفنا على هذه المصطلحات المتمثلة في: البدء، والخروج، والانتهاء نجد أن ابن رشيق يأخذ بنا إلى بناء القصيدة التي شبهها بجسم الإنسان في قوله: على لسان الحاتمي « من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم، متصلا به، غير منفصل منه، فإن القصيدة مثلها مثل

خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفى معالم جماله، ووجدت حذّاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراسا يحميهم من شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان»[35]، وعليه نلاحظ أن ابن رشيق قد سبق إلى القول بفكرة الوحدة العضوية للقصيدة العربية، وهي فكرة قال بها شعراء العصر الحديث، الذين شبهوا القصيدة بالكائن الحي السليم الأعضاء، يقوم كل عضو بوظيفته على أكمل وجه، وإذا تعطل أحد الأعضاء، انعكس هذا العطب على القصيدة بأكملها. وبالتالي يبقي فضل السبق لابن رشيق في القول بالوحدة الموضوعية.

10- السرقات الأدبية:

تعد قضية السرقات من أكثر القضايا طرحا قديما وحديثا في الساحة النقدية، وقد أفرد لها ابن رشيق بابا سماه: " باب السرقات وما شاكلها" وقد جمع فيه كل ما ذُكِر من طرف النقاد القدامى ومشايخه وقد ذكرها جملة في البداية، ثم قام بتفصيلها والتمثيل لها، معترفا بأن هذا الباب: «باب متسع جدا، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه وفيه أشياء غامضة، إلا عن البصير الحاذق، وأخرى فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل، وقد أتى الحاتمي في"حلية المحاضرة" بألقاب محدثة تدبرتها ليس لها محصول إذا حققت: كالاصطراف، والاجتلاب، والانتحال، والاهتدام، والإغارة، والمرادفة، والاستلحاق، وكلها قريب من قريب»[36] ويتبنى ابن رشيق رأي القاضي الجرجاني بل يراه المذهب الصحيح مستشهدا بقوله: «و لست تعد من جهابذة الكلام، ولا من نقَّاد الشعر، حتى تميز بين أصنافه، وأقسامه، وتحيط علما برتبه ومنازله، فتفصل بين السَّرَق والغصب وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادّعاء السرقة فيه والمبتذل الذي ليس واحد أحق به من الآخر، وبين المختص الذي حازه المبتدي فملكه واجتباه السابق فاقتطعه»[37].

أ- مفهوم السرقة وأنواعها:

ويقدم ابن رشيق للمتلقي مفهوم السرقة من خلال قول أستاذه عبد الكريم النهشلي: «السَّرَقُ في الشعر ما نقل معناه دون لفظه، وأبعد في أخذه»[38]. ثم يذكر أنواع السرقات، وأصنافها. حيث جمع ابن رشيق في كتابه "العمدة" كل مصطلح قيل من طرف النقاد الذين سبقوه، محاولا توضيح الفروق الموجودة بين كل مصطلح منها فجاءت مقسمة إلى: سرقات شاملة للفظ والمعنى مثل الاصطراف، وسرقات تأخذ اللفظ دون المعنى مثل النظر والملاحظة، وأخرى بأخذ بنية الكلام، مثل: الموازنة والعكس. ومن أهم المصطلحات التي أوردها ومثل لها:

*مصطلح الاصطراف: الذي ينضوي تحته مصطلحا: الاجتلاب أو الاستلحاق، والانتحال، ثم مصطلح الإغارة، فالغصب، وغيرها مثل: الإلمام والاختلاس، والمواردة التي هي من السرقات ولا تعد سرقة إذا: «صح أنّ الشاعر لم يسمع بقول الآخر وكانا في عصر واحد»[39]. وقد وقف ابن رشيق عند كل نوع من هذه الأنواع وقدم لها تعريفا أو مفهوما يختلف كل واحد عن الآخر، مثل: **الاصطراف:** ويتفرع إلى الاجتلاب، والانتحال

*- **الاجتلاب:** وقد مثل له بقول النابغة:

وصَهْبَاءُ لا تُخْفِي القذَى وهَوَ دُونَها * تُصَفِّقُ في رَاووقِها حين تَقطبُ**

تَمزَّزْتُها والديك يدعو صَبَاحَهُ * إذا ما بَنُو نعشٍ دَنَوْا فتصوَّبوا**

فاستلحق البيت الأخير فقال:

وإجانةٍ رَيَّا السُرُورِ كَأنّها * إذا غَمَسَتْ فيها الزُجَاجَةُ كَوْكَبُ**

تَمَزَّزْتُها والدِيكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ * إذا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فتصَوَّبُوا**[40]

*- **الانتحال:** وقد مثل له بقول أبي نواس:

أنَّ الّذينَ غَدَوْا بِلُبِكَ غَادَرُوا * وشَمِلاَ بِعَيُنِكَ لا يَزَالُ مَعِيناَ**

عَيضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لِى: ***مَاذاَ لَقَيْتَ مِن الهَوى ولَقَيْنَا؟

فإن الرواة مجمعون على أن البيتين للمعلوط السعدي انتحلهما جرير»[41]

*- **الإغارة:** « أن يصنع الشاعر بيتا ويخترع معنى مليحا فيتناوله مَنْ هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا، فيروى له دون قائله، كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه ينشد:

تَرَى النَّاسَ ما سِرْنا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا * وإن نحن أَوْمَأْنا إلى النَّاس وقَفُوا**

فقال: متى كان المُلْكُ في بني عُذْرَةَ؟ إنما هو في مُضَرَ وأنا شاعها، فغلب الفرزدق على البيت، ولم يتركه جميل ولا أسقطه من شعره»[42].

*- **الاختلاس:** مثل« قول أبي نواس:

مَلِكُ تَصَوَرَ في القُلُوبِ مثاله * فكأنّه لم يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ**

اختلسه من قول كُثَيْر:

أَرِيدُ لأَنسى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا * تَمَثَّل لى ليلى بكُلَّ سبيل**[43]

*- **الموازنة:** مثل قول كثير:

تَقُولُ مَرِضْنا فما عُدْتنَا * وكَيْفَ يَعُودُ مَرِيضُ مَرِضا**

وازن في القسم الآخر قول نابغة بني تغلب:

بَخِلْنَا لبُخْلِكِ قد تَعْلَمِينَ * وكيف يَعِيبُ بَخِيلٌ بَخِيلَا**[44]

وبهذه الأمثلة التي انتقينا البعض منها للتدليل على قضية السرقات والتي أورد منها ابن رشيق الكثير والتي أراد من خلالها أن يقرب للمتلقي المفاهيم الصحيحة لكل مصطلح منها. وما نستخلصه من هذا الباب أن ابن رشيق لم يقف موقف الرافض للأخذ أو التعديل وإنما يرى أن لكل ذي فضل فضله، فيقول: «والمخترع معروف له فضله، متروك له من درجته، غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده – بأن يختصره إن كان طويلا، أو يبسطه إن كان كزا، أو يبينه إن كان غامضا، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا، أو رشيق الوزن أن كان جافيا – فهو أولى به من مبتدعه، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر، أما إن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غير، فإن قصر كان ذلك دليلا على سوء طبعه، وسقوط همته، وضعف قدرته»[45]. يبدو واضحا من هذا القول أن ابن

رشيق لا يعتبر كل أنواع السرقات مذمومة، بل هو يعطي لكل ذي حق حقه، فالمبتدئ له فضل الابتداء، والمقتدي له فضل الاقتداء، والمحسن له فضل الاجتهاد.

خاتمة

من خلال دراستنا لكتاب العمدة والتي حاولنا فيها الكشف عن جهود وإضافات ابن رشيق في النقد العربي القديم، تبين لنا ما يلي:

- إنّ كتاب "العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده" من خيرة ما أُلِّفَ في القرن الخامس هجري، ويعد من أهم كتب ابن رشيق القيرواني، إذ يعتبر محطة مهمة في تاريخ النقد العربي عامة وفي المغرب العربي خاصة، ذلك أنه محمّل بمجموعة وافرة من القضايا النقدية والبلاغية، إضافة إلى علوم أخرى متنوعة المواضيع، أوردها ابن رشيق فيه –العمدة- فجاء المُؤَلف ممتعا وثريا، وغنيا بآراء النقاد والعلماء الذين استفاد منهم ابن رشيق.

- قام ابن رشيق بعملية مسح للمدونة العربية، ولاسيما النقدية منها، مما جعل كتابه العمدة موسوعة شاملة لكل القضايا النقدية التي طرحت مع جهابذة النقد العربي القديم.

- إنّ ابن رشيق في جمعه للمادة النقدية كان أمينا إلى حد كبير؛ حيث كان كثيرا ما ينسب الأقوال إلى أصحابها، وهذا ما يسمى بالأمانة العلمية في الأبحاث العلمية الحديثة.

- كل مرة يتطرق ابن رشيق إلى قضية نقدية لا يخرج منها دون أن يبدي برأيه فيها والواضح أنه لا يخرج عن الوسطية في الكثير من مداخلاته، كما لاحظنا توافق أفكاره مع بعض أفكار العصر كفكرة الوحدة العضوية للقصيدة العربية

مراجع البحث وإحالاته:

1 - مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الاصالة، الجزائر، ط(01)، ج(01)، ص: 245

2 - ينظر: أبو علي الحسن بن رشيق، القيرواني، الأزدي، العمدة – في محاسن الشعر، وآدابه، و نقده -، تح، فل، تع: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط(5)، ج(1)، 1401هـ - 1981م، ص: 16

3 - المصدر نفسه، ص: 16

4 - سورة: يس، الآية: 69

5 - المصدر نفسه، ص: 20

6 - نفسه، ص: 21

7 - نفسه، ص: 22

8 - نفسه، ص: 36

9 - نفسه، ص: 93

10 - نفسه، ص: 90 - 91

11 - نفسه، ص: 93

12 - نفسه، ص: 113

13 - نفسه، ص: 115

14 - نفسه، ص: 112

15 - جون كوين، النظرية الشعرية –بناء لغة الشعر- تر: أحمد درويش، دار غريب للنشر، القاهرة، 2000م، ص: 64

16 - أبو علي الحسن بن رشيق، القيرواني، الأزدي، العمدة – في محاسن الشعر، وآدابه، و نقده -، ص: 113

17 - المصدر نفسه، ص: 119

18 - نفسه، ص: 119

19 - نفسه، ص: 120

20 - نفسه، ص: 120

21 - نفسه، ص: 124

22 - محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، ص: 270

23 - أبو علي الحسن بن رشيق، القيرواني، الأزدي، العمدة – في محاسن الشعر، وآدابه، و نقده ص: 124

24 - المصدر نفسه، ص: 126

25 - نفسه، ص: 127

26 - أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد مارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط(3)، 1388هـ - 1969م، ص: 131 - 132

27 - أبو علي الحسن بن رشيق، القيرواني، الأزدي، العمدة – في محاسن الشعر، وآدابه، و نقده ص:127

28 - المصدر نفسه، ص: 129

29 - نفسه، ص: 130

30 - نفسه، ص: 130

31 - ابن رشيق، العمدة، ج(01)، ص: 130

32 - المصدر نفسه، ص: 130

33 -نفسه، ض: 217

34 - نفسه، ص: 217

35 - ابن رشيق، العمدة، ج(2)، ص: 117

36 - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده، ج(2)، ص: 280

37 - المصدر نفسه، ج(2)، ص: 280

38 - نفسه، ص: 281

39 - نفسه، ص: 282

40 - نفسه، ج(2)، ص: 282- 283

41 - نفسه، ص: 284

42 - نفسه، ص: 284

43 - نفسه، ص: 288

44 - نفسه، ج(2)، ص: 288 - 289

45 - نفسه، ص: 290- 291